تأثير الآلات الحديثة

في حياة الفلاح المصري

من حيث القوة والعمل

همسة في أذن وزارة الشئون الاجتماعية

تخيل دائني انساناً وأمعى . وقف الانسان على قدميه ، وانبطح الامعى على بطنها . ولكن انتلابا خفياً خطيراً أصابها . التعب ساق الانسان وانشطلا ، وانتفخ ذراعاه في جنبيه وانبطح على بطنه ، وانطق ذنب الأمعى فصار ساقين وبرز من جنبيها ذراعان فانتصبت واقفة ، فصار الانسان امعى ، وصارت الامعى انساناً .

كان لبضعة اختراعات قليلة اهتدى اليها في القرن التاسع عشر ، آثار اجتماعية لم يمر بخيال أحد انها سوف تترتب على تلك المخترعات . بل إن هذه الآلات ، كما أحدثت آثاراً اجتماعية ، كذلك أحدثت آثاراً سياسية ، خضعت لها الدول ، ولا تزال خاضعة لها حتى اليوم . فالآلات أحدثت كل الحركات العمالية التي شغلت العالم قرناً ونصف قرن من الزمان ، وقوّت روح المذاهب الاشتراكية والشيوعية وما اليها ، كما كانت السبب في قيام الروح التسلطية الاستعمارية في العالم الحديث . لأن العَلَم تبع التجارة في البحار ، كما قال سياسيو القرن التاسع عشر . والآلة زادت الانتاج ، وزيادة الانتاج تطلبت الأسواق ، وفتح الأسواق تطلب الجيوش والأساطيل .

ولكن تأثير الآلة لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى آفاق أخرى وأحدث آثاراً سوف تشكل عالم المستقبل القريب بحسب ما خلفت من ظروف وبيئات . من تلك الآثار أثران كان لهما أعمق الفعل في حياة الجماعات : الأول تأثيرها في تحوير الرأسمالية ، والثاني تأثيرها في حياة العامل . أما تأثيرها في الرأسمالية فإخراجها رؤوس الأموال من مجرد الملكية للأرض والبناء أو للأثاث إلى أموال منتجة بذاتها ، رؤوس أموال « دائمة » على ما يقول الاقتصاديون ، تخرج من يد صاحبها وترد اليه مرات عديدة في أوقات متفاوتة على حسب طبيعة ما توظف فيه من الأعمال ، فصارت بذلك أوثق ارتباطاً

بحياة الجماهير بعد أن كانت وثيقة الرابطة بصاحبها وحده ، شأنها في عصور الاقطاع . ومن ناحية أن رؤوس الأموال أصبحت وثيقة الارتباط بالناس وبالعمال خاصة ، نشأ الكلام في النظام الرأسمالي في العصر الحديث ، ومن الكلام فيه تفرعت المذاهب الاجتماعية الحديثة ، وإن شئت أن تكون أكثر تحديداً ، فقل تحددت تلك المذاهب بعد أن طغى عليها عصر الظلامية الفكرية الفاً من السنين ، وبعد أن طغى عليها عسف نظام الاقطاع حتى حدود العصر الحديث . هذا من حيث أثرها في الرأسمالية . أما من حيث تأثير تلك الآلات في حياة العامل ، فان الانقلاب كان أعظم . فان العامل قبيل عصر الآلات كان سيد نفسه ، إذ كان يعمل تحت سلطتين : إما سلطة الأسرة وإما سلطة الطائفة . فاذا كان عمله في وسط أسرته وانتاجه له وحدها ، كانت الأسرة هي وحدها صاحبة السلطة العليا عليه وفائدة عمله عائدة عليه وعليها . وإذا كان عمله طائفي أو مهني فان أصحاب المهن كانوا ينتظمون طوائف كل طائفة تختص بحرفة أو صناعة خاصة تقتسم العمل وتقتسم فائدته . فلما ظهرت الآلة ظهرت معها المعامل وشيدت معها المدن الصناعية ، فخرج العامل من جو السيادة الذاتية إلى جو الاستعباد في ظل رأس المال والعمل . ونسي مهارته اليدوية التي كانت رأسماله وملاذ حريته ، ووقف مكتوفاً أمام آلة تسيره وتحدد عمله وتحدد أجره ، وفقد إرادته أمام الآلة ، وفرضت الآلة عليه إرادتها ، فأصبح هو الآلة وأصبحت الآلة انساناً ، أشبه شيء بأفعى دانتي وانسانه . ومن هنا نشأت كل المشكلات التي نسميها اليوم مشكلات النظام الاقتصادي ، ونشأت إلى جانبها المذاهب الاجتماعية الحديثة على اختلاف ضروبها وتباين صورها .

***

هذه هي الظروف التي حفت بالعالم الاوربي منذ نشوء الآلة ، أو بالحري الظروف التي طغت على أوربا ثورة الانقلاب الصناعي . فهل نحن مسوقون في مثل هذه الطريق ؟ نقول نعم نحن مسوقون فيها وبخطوات واسعة سوف تستعجلها هذه الحرب عندما تضع أوزارها . صائرون فيها من ناحيتين : من ناحية العامل ، ومن ناحية الفلاح . أما مشكلات العامل فقد سبقتنا اليها أوربا ومشكلات العامل هنالك ستكون هي بعينها مشكلات العامل هنا . وتأثير رأس المال هناك ، سيكون تأثيره هنا . ولكن تأثير ذلك الانقلاب في الفلاح المصري ، أمر يحتاج الى شيء من التفكير وشيء من التطبيق ، هو موضوع كلامنا اليوم .

لنسأل أولاً : هل حدث في حياة الزارع المصري انقلاب أشبه بالانقلاب الصناعي الذي

حدث في أوربا ؟ نعم حدث ذلك الانقلاب . وبدأ منذ عصر محمد علي . ولكن خطواته كانت وئيدة ، ثم تسارعت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد تسارعها في القرن العشرين .

***

عاش الفلاح المصري خلال ثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر عيشه الذي ألفه في عصر المماليك ، وورثه عن العصور التي تقدمته . وترجع هذه الوراثة إلى العصر الاغريقي ثم إلى العصر الروماني من بعده . عاش هذه الحقبة غير شاعر بأنه يتقدم نحو انقلاب خطير بدأته سياسة محمد علي في مصر . فصار من حيث الوضع السياسي أكثر اتصالاً بأوربا تشارك في بعض حروبها وتطلع من طريق تلك السياسة الى السيادة محرِّكاً على الجزء الشرقي من البحر المتوسط . ومن حيث الانتاج الزراعي أصبح أكثر اتصالاً بالأسواق العالمية التي تصرف فيها أهم محصولاته وأهمها القطن . ولكن هذه الصلة بدأت صغيرة وأخذت تنمو على الأيام . هذا الانقلاب الكبير كانت له آثاره الجلى في حياة الفلاح المصري .

فان الأسر الزراعية في الزمن الأول كانت تعيش مكتفية الحاجة بعملها الذاتي . تزرع قطعة من الأرض تكفيها مؤونة العيش ، وتغزل قليلاً من القطن ثم تنسجه على مناسج منزلية ، وتستغل دواجنها لحاجة حياتها ، وتطحن حبها في طواحين إما يديرها الهواء وإما تجرها الدواب . وكان عمل الفلاح قليلاً فان أكثر الأرض كانت بوراً وطرق الري بدائية ، إذ كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على الفيضان وحده وطرق الصرف كانت معدومة بالمرة . فكان ما يزرع من الأرض جزء ضئيل ، ولكنه كان يكفي الحاجة ويزيد عليها . كان شأن الفلاح المصري في ذلك الوقت شأن الفلاح الأوربي قبل عصر الآلات . زراعة تكفي الحاجة ، وصناعة يدوية بسيطة معملها البيت وسوقها القرية .

ولكن الآلات أخذت تعمل عملها الثابت في حياة الفلاح المصري وأثرت فيه كما أثرت في حياة الفلاح الأوربي .

فان اختراع الآلة البخارية زاد سرعة الانتقال براً وبحراً وزادت الصلة بين مصر وجاراتها من الشمال ، وعمت مشروعات الري وتلتها مشروعات الصرف ووردت المنسوجات الأوربية رخيصة الثمن ، فقضت على المغزل والمنسج واستبدلت طواحين الهواء والدواب بالطواحين الآلية وأخذ المحراث الآلي يحل محل المحراث الذي تجره الثيران ، وسلكت السيارات الطرق ، وبالجملة فضى الحديد على جزء كبير من حياة الفلاح الأولى ، وسيقضي بعد

الحرب مباشرة على الجزء الباقي منها . فما هي الآثار التي ستترتب على مثل هذا الانقلاب وما هي المدة التي أعددناها لنتوقى نتائجها ؟ .

* **

إذا وضعت الحرب أوزارها وسوق مصر جائعة والبلاد الصناعية في حاجة إلى الانتاج وتصريف ما تنتج، عمرت مصر بصنوف من البضائع أهمها الآلات الزراعية . آلات الحرث والري والبذر وجمع القطن والطحن والحصد والدرس والتذرية ، وجميع هذه الأشياء سوف توفر الأيدي العاملة في الريف بحيث يصبح الفلاح في شبه تعطل أكثر أيام السنة ، ويفقد بذلك ثمانين في المئة على الأقل مما كان يربح من أجر عمله في المزارع الكبرى وهو شيء كان على كل حال يقوم بسد جزء من حاجته . وستنشأ العامل الكبرى حوالي بعض المدن ، فتمتص قليلاً من هذه الأيدي المتعطلة ، ولكنها مهما امتصت فسيبقى الجزء الأكبر من الأيدي متعطلاً عن العمل قليل الكسب، فينزل مستواه إلى إقل من المستوى الذي هو فيه الآن. ومن هنا تنشأ مشكلتان : مشكلة عمالية : تقوم في المدن الصناعية، وسوف يكون فيها العامل مضغوطاً من جميع نواحيه . فرأس المال يريد الربح بأقصى نسبة فينزل أجور العمال لتوفر الأيدي في الريف . ومشكلة الفلاح : الذي سيظل متعطلاً ولا يجد باباً يكسب منه أجر العمل ؛ وسيقتصر عمله على غيطه الصغير الذي لا يكاد يقوم الآن بأوده بعد دفع نفقات الزراعة وإيجار الأرض .

هذه هي مشكلة الريف بغير إطناب . هذه هي المشكلة التي نحن مقبلون عليها . فما هي العدة التي أعددناها لنتوقى نتائجها الاجتماعية ؟

لا شك في أن رفع مستوى الفلاح له طريق واحد . طريق لا ثاني له . زد ثروته ترفع مستواه . فما هي الفائدة في أن تعرفه معنى النظافة وهو لا يجد ثمن الصابون ؟ وما هي الفائدة في أن تعلمه قواعد الصحة وهو لا يجد ثمن الدواء ؟ وقس على ذلك كل وجوه الاصلاح التي ذكرها كثير من الكتاب في أزمان وظروف متفرقة . إنها ولا شك وجوه إصلاح ضرورية ، ولكنها لن تنتج ولن تثمر أية ثمرة والفلاح في فقره المدقع الشديد . زد ثروته ترفع مستواه .

ونحن بعد مقدمون على عصر سوف تشتد فيه حاجة الفلاح . عصر ستقوم فيه الآلة مقام اليد العاملة في المصنع وفي الحقل ، وسيفقد الفلاح مصدراً من مصادر رزقه : ثلاثة أرباع أجر عمله البدوي في الحقول التي سوف يملع فيها صوت الآلات ، فتجر على الفلاح الفقر

والخماسة ، فرق ما هو فيه من فقر وخصاصة . آلات سوف تجلجل في الحقول فينذر صوتها بالخراب الاجتماعي ، وإن أدت إلى زيادة الانتاج وقلة النفقات . ولكنها أرباح ليس للفلاح العامل أية فائدة منها . بل ستكون مصدر ذله واستعباده ، أكثر مما هو فيه من استعباد .

وعندي أن الحل الذي تتطلبه هذه المشكلة له وجه واحد . فالواقع أن الأيدي المتعطلة في الريف ستزيد بعد الحرب ، وكسب عمل الفلاح سيقل فينزل كسبه وإيراده ، وسيحل به فقر عظيم . فاذا استطعنا أن نلجأ إلى وسيلة نتقي بها ذلك الشر كان هذا أمجد ما يقوم به أبناء هذا العصر لمستقبل مصر ، أمهم العظمى .

لكي نتقي هذا الشر ينبغي لنا أن نشيد دعائم الصناعات الزراعية في معامل صغيرة تنتشر بين القرى والضياع . صناعات تتصل بالانتاج الزراعي من جميع وجوهه . صناعات الألبان واللحوم الباردة والخضر المحفوظة وتربية الدواجن والنحل إلى غير ذلك من آلاف الصناعات التي يمكن استغلالها حتى من النفايات التي تتكدس من حول القرى وفي المدن . ويكون لنا إلى جانب هذا أسطول للنقل تام العدة يصرف هذه المصنوعات في أنحاء العالم حيث تطلب وحيث تستهلك . بذلك نجد للأيدي المتعطلة عملاً يعود عليها بكسب ، ونرفع مستوى الفلاح من رجل منتج بالزراعة إلى رجل منتج بالصناعة أيضاً . هذا عمل ينبغي أن تعد له الحكومة يد المساعدة الفعالة بخبرائها وعالمها . وإلاَّ فالنتيجة ما وصفنا . ولله در الشاعر البراري إذ تقول مخاطباً هدهد سليمان :

خدمت سليمان في ملكه ... وبلّغته نبأ من سبأ
وقلت : أحط بما لم تحط ... به واجترأت أمام الملأ
وحُملت منه كتاباً كريماً ... فعززت بالخبر المبتدأ
فيمم أولي الأمر منا وقل ... معي نبأ يا له من نبأ
حسام الحقول : وأعني به ... فلاَّح مصر ملاه الصدأ
غذاها وجاع وصان وضاع ... وأروى الضياع وقاسى الظمأ
وأمراضه فوق هذا وذاك ... تناهبه كباح الكلأ
ورث الحديد من حوله ... ولم يلق بينهما ملتجأ
فيا ليت شعري : متى يمتطي ... به ويضاء له ما أنطأ